الا رجلا ذا مرة فيلمكم ... ويرأب صدعا فيكم بات واهيا
يقوم فلا يرتد او يبلغ المنى ... ويقضي ولكن يبعث السيف قاضيا (١٧)

ويبدو ان القصيدة تيلت في الفترة اللاحقة لعام ١٩١٢ التي راجت فيها الدعوة لاستقلال العرب ، وتأسست في سبيل ذلك بعض النوادي والجمعيات العربية السرية والعلنية لتنظيم تلك الدعوة والعمل على تحقيقها بعد ان تمادى الاتحاديون في نزعتهم الطورانية ، وتجبروا في اضطهاد العنصر العربي . فالامة في مثل هذه الفترة ، القلقة من حياتها ، تروح تبحث بين ابنائها عن البطل المنذور للقيام بدور القيادة الى عهد النهضة الذي تستشرفه على آفاق آمالها .

وجدير بالملاحظة هذه الروح القومية الشاملة التي ينادي بها الشاعر ويعليها من خلال صوت الامة العربية لتجميع اطرافها واقطارها في وحدة الألم والأمل والمصير على صعيد قومي . وهذا النفس القومي هو الجديد حقا في هذه الفترة ، فقد اجتمعت شعوب هذه الاقطار مع غيرها من الشعوب الاسلامية في الامبراطورية على شعور الجامعة الاسلامية والوحدة الدينية ، خصوصاً امام الاطماع الاوروبية والتسلط الاستعماري . ولكن هذا الجامع الديني الذي كان الخليفة يقيد به رعيته من شعوب المسلمين بدأ يضعف ويتراخى ، وتتفكك خيوطه في النفوس مع ازدياد مظالم السلطة التي تصبها على الرعايا تحت خيمة هذا الجامع وفي ظله . وهذه المظالم التي كان الشعراء يتسترون عليها نفاقاوخوفا تحت هذا الظل وباسم الدين ، بدأت تتكشف وتبرز آثارها وردودها في نفوس العرب مع اطراد نمو الوعي القومي لديهم ، وبازدياد الاضطهاد القومي من الجانب الآخر . ولم يعد الجامع الديني عذرا كافيا للتستر على ما لحق بالسلطنة من خلل وما يستشري فيها من جور وفساد ، فأخذ الاحساس بالكيان العربي ينمو ويزدهر. وكان اسعاف النشاشيبي من اوائل الذين استجاب احساسهم لما رجوه من منح الدستور ، فقال قصيدته (ذكرى فتاة مكدونيا) ، وهي قصيدة في الحرية ، ومطلعها :

اخطري اليوم في الربوع اختيالا ... لا تخافي من العدو اغتيالا
لا تخافي من كيده لا تخافي ... ان كيد العدو ولى وزالا

فقد كان الخوف والقلق والكيد والاغتيال يملأ نفوس الناس ، فيقول :

قد ابدناه بالسيوف المواضي ... وتركناه عبرة ومثالا
وازلنا في الملك كل فساد ... وشفينا ما كان داء عضالا
وحمينا حماك من كل باغ ... رام منا ومنك ما لن ينالا

وفيها ينظر الى مكدونيا نظرة العطف لوقوعها في الظروف نفسها التي وقع فيها وطنه الصغير . وهو يدرك اهمية الظروف الواحدة ؛ تلك الرابطة القومية ، فيدعو الى التخلص من آثار عبد الحميد . ولانه يدرك كيف كان الدين يتخذ اداة تفرقة وتضليل ، راح يحذر الناس من ذلك ويفضح تبرير محاربة البلقان باسم الدين ، يقول :

ايها الشرق طال نومك فانهض ... للمعالي وصافح الاقبالا
اترك الدين في المعابد يبكي ... واحتفل بالفتاة شرق احتفالا *
تخذوه يا شرق للظلم سبلا ... واضلوا وحرفوا الاقوالا (١٨)

* هكذا في الاصل .